Yanabee'a

ينابيع

مؤسسة المعارف الإسلامية

٧

مَجَلّةٌ ثَقافيّةٌ تُعنى بِنَشرِ فِكرِ أَهْلِ البَيْتِ عليهم السلام / السَّنة الثانية / العَدَد السابع رَجَب ـ شَعبان ١٤٢٦هـ / آب ـ أيلول ٢٠٠٥م

- بحوث في أسباب الغيبة
- الدستور.. وطرق إنشائه ومحتواه
- مدينة النيل.. بين الماضي والحاضر

الدين.. وتنظيم الحياة الأسرية

• هاشم حسين ناصر المحنك
رئيس تحرير مجلة النجف

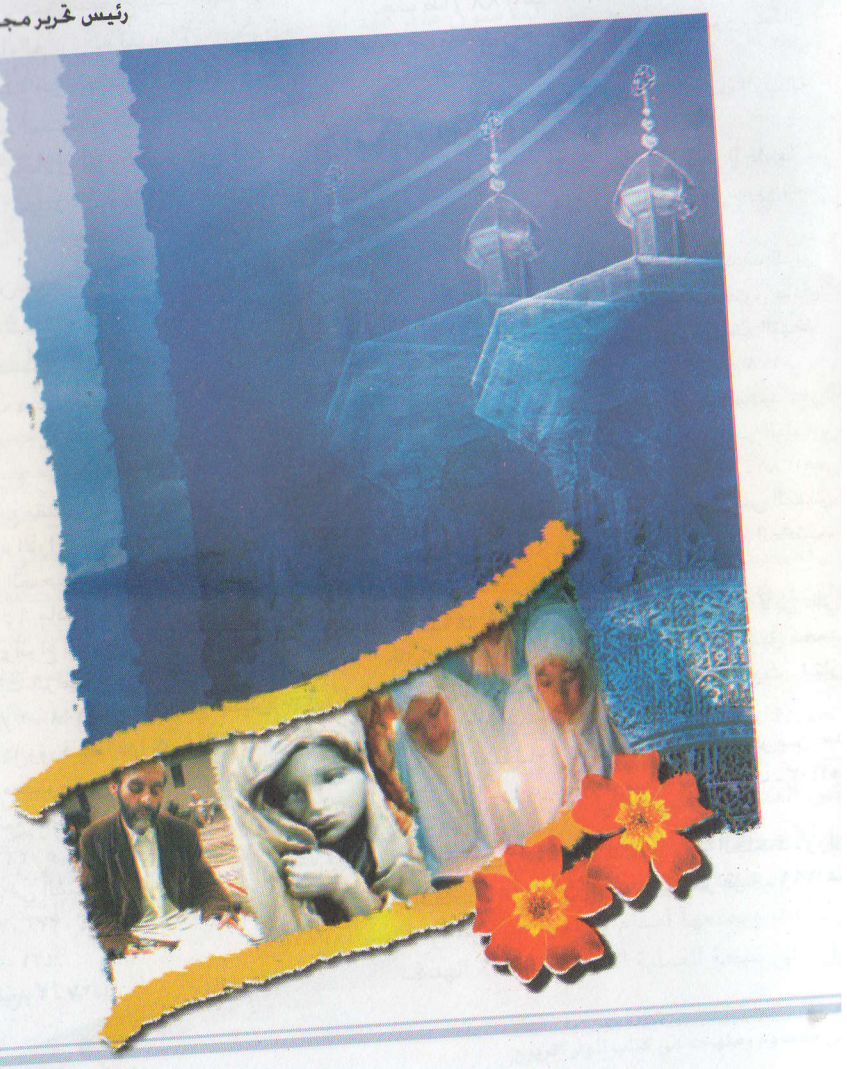

ينابيع لو استعرضنا الحضارات التي ازدهرت على أرض الرافدين ووادي النيل وبلاد الشام... وغيرها من الحضارات، لرأينا إن هناك تنظيمات اجتماعية ـ أسرية، وفقاً لقوانين وضعتها الشرائع أو الدولة أو الأعراف، وأرقى ما يدلل على العمق الحضاري، وبالذات العلاقة بين أفراد الأسرة والمجتمع... ومنها (قانون أورنمو) والذي ينظم الزواج والطلاق والالتزامات الأخلاقية، (وقانون لبت عشتار) والذي ينظم الزواج وفترات الحمل والإجهاض، و(قانون ايشنونا)، و(قانون حمورابي) الذي جاء بأكثر دقة وعمق من القوانين السابقة له، وما اهتمت بأمور نظام الأسرة وتنظيمها، حتى يلاحق ما يصدر من الابن لوالديه من عقوق، أو من الوالدين لأبنائهما، والزوج والزوجة، وكان القسم الثامن من مسلة حمورابي أو شريعة حمورابي، يحتوي على المواد التي تتعلق بالشؤون العائلية، كالزواج والطلاق والإرث والتبني والتربية، وكل ما له علاقة بالروابط العائلية وإنجاب الأطفال، والتي تتحدد هذه المواد من ١٢٧-١٩٤[1].

ولحقت هذه الآثار أو البصمات الحضارية، حضارة أشرقت وكان لها العمق والدقة والتطور والأصالة الواضحة، ألا وهي الحضارة العربية الإسلامية، بدستورها الإلهي (القرآن الكريم)، الذي أحيا الإنسان بعد موته، في الفكر والعقيدة، بما فيها الأخلاقية والإنسانية والسمات الحميدة، وما ترجمته السُنة النبوية الشريفة والأقوال المأثورة للأئمة المعصومين عليهم السلام، وما أُنجز من أنظمة فرعية لمختلف الحياة، وبالذات الدقة في الاهتمام بنظام وتنظيم الأسرة، فنظام الأسرة (Family Institution)، وهو مجموع القواعد والأسس الاجتماعية التي لها الأهمية الجوهرية في تكوين المجتمع وتحقيق متطلباته ووجوده الاجتماعي وفقاً لخصائصه المتميزة ويشكل نسقاً من الأدوار الاجتماعية المترابطة والمعايير التي تتعلق بتنظيم العلاقات الجنسية وتربية الأبناء وبناء العلاقات القرابية[2].

أما تنظيم الأسرة (Birth Control) الجزء المكمل لنظام الأسرة والذي يحدد بموجبه حجم الأسرة والتخطيط لها وفقاً للظروف الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والبيولوجية، وتشمل أيضاً علاج العقم أو ارتفاع أو انخفاض عدد المواليد وبمختلف الأساليب التي لا تتنافى مع الشرائع والقوانين[3].

واهتم الدين الإسلامي وأدبياته، بأرقى وأقوم السبل منسجمة مع واقع وطبيعة الفكر السلوكيات الإنسانية والأخلاقية، وما نحى منحاه من المفكرين الإسلاميين من الصحابة والتابعين والأقربين، وما أغنى (الاجتهاد) في مستجدات الحياة العملية، وما حصلت من كتابات في القرون اللاحقة، ومنهم على سبيل المثال الفارابي في كتابه: (آراء أهل المدينة الفاضلة) والذي تناول فيه طبيعة المجتمع وأوجهه الإنسانية، واعتبرها على ثلاث مستويات هي العظمى والوسطى والدنيا، والبناء الاجتماعي للمدينة الفاضلة والذي شبه المجتمع بالكائن الحي فهو يتمثل

كما هو عليه في فاعلية الأعضاء المختلفة للإنسان وتفاضل بعضها على بعض، وأهمية بعض على بعض، ودراسات ابن خلدون اليماني الحضرموتي الأصل والذي استقر في الأندلس ثم المغرب ومصر، هي الأخرى كان لها أثرها في أدبيات الفكر الإسلامي، أهم مؤلفاته التي تخص علم الاجتماع مقدمته المعروفة والتي أخذت صدى واسع، على الرغم من بعض الهفوات في بعض الجوانب، وقد تناوله على أساس مفهوم (علم العمران)، الذي يحدد في كتابه بأن المجتمع وتطوره وإشكاله تحدد في شكلين: البدو والحضر، واعتبر عمر الدولة تحدد بثلاث أجيال والجيل بأربعين سنة ويمر بأربع مراحل وهي: البداوة، حالة الملك والتي يتحول بها الحضارة، مرحلة الترف التي ينسى الناس عهد البداوة والخشونة، وأخيراً مرحلة الاضمحلال(٤).

وجدير بنا أن نستقي مصادر الفكر الخاص بنظام الأسرة وتنظيمها من نبعها الأساسي النقي، ويمكن تحديدها بالنقاط التالية المقتضبة:

١- تحدد الرسالة السماوية والسنة النبوية الشريفة، من هم المحارم من غير المحارم، أي من يمكن الزواج منهم ومن لا يمكن الزواج منهم، كما ورد في الذكر الحكيم: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النساء/ ٢٢-٢٥).

٢- النية والاختيار: قال رسول الله ﷺ: (النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني)(٥)، وحث ﷺ على الزواج بقوله: (من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لا فليصم فإن الصوم له وجاء)(٦)، وأضاف ﷺ للترغيب على الزواج بقوله: (تناكحوا تكثروا فإني أباهي الأمم يوم القيامة حتى بالسقط)(٧).

ويحذر من التشدد في التزويج، لأن ذلك يؤدي إلى عواقب وخيمة على المجتمع، لذا يقول ﷺ: (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه. إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)(٨)، ولذا يتوجب أن لا يكون المهر عائق آخر وثقل على كاهل الذي يرغب في الزواج، وبهذا يقول ﷺ: (أبركهن أقلهن مهراً)(٩)، محفزاً به ما يجعل التآلف والمحبة، لاستيعاب هذه السنة النبيلة التي تديم الروح الإنسانية بتقويم السلوك والأخلاق بالجوانب المادية وغير المادية.

ولكن حينما لا يجد المسلم ما يعينه على الزواج فليستعفف أو يتعفف، فإن له أجراً عظيماً، حتى يجعل الله سبحانه وتعالى السبب لإيصال فضله، وهو ما جاء في قول الخالق عز وجل: (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) (النور/ ٣٣).

وقد سبق سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بقوله: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (النور/ ٣٠-٣٢).

والرسول الكريم ﷺ يقول: (تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها، فعليك بذات الدين تربت يداك)(١٠)، ويحذر ﷺ المسلم من منبت السوء، والاختيار العشوائي للزوجة دون النظر إلى صلاح أسرتها وصلاحها، حيث يقول: (إياكم وخضراء الدمن - فقيل ما خضراء الدمن - قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء)(١١)، ويعلل ﷺ ذلك بأدق القول: (تخيروا لنطفكم فإن العرق نزاع)(١٢)، وفي رواية (دسّاس)، وكل ذلك مضامينه بيولوجية واجتماعية، وما يرثه الأبناء من الآباء من عاهات منظورة وغير منظورة، بمعنى آخر جسدية ونفسية وخلقية، ولا يقف التحذير من المرأة، بل حتى من الرجل، وأدق تفاصيل الأخلاق، حيث يقول ﷺ: (من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها)(١٣)، ويضيف ﷺ قائلاً: (النكاح رقٌّ فلينظر أحدكم أين يضع كريمته)(١٤)، لئلا تُظلم من مختلف الأبعاد الإنسانية - الأخلاقية - الاجتماعية.

٣- وبعد أن يتم الاستعداد والنية والاختيار، تتم مراسيم الزواج وما يتطلبها، وجلّ من قال في محكم كتابه العزيز: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم/٢١).

والتفكر قمة البناء الإنساني الذي فيه كل المودّة العقلانية الدائمة، الروحية والنفسية والجسدية، فلا يكون تماسك الفرد ذاته، وأسرته، ومن ثم المجتمع إلا من خلال البناء المعتمد على التفكر، وبهذا يتواصل استقراره ويكون امتداده الأخلاقي والحضاري، (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) (المؤمنون/ ٥-٦)، وما أروع وأدق كلمة وموقع (حافظون) في هذه الآية الكريمة، التي تنم عن مدى إنسانية وأخلاقية وقدسية الجنس في الإسلام، حينما يتم برمجته وفق أرقى ما يقوّم سلوك الإنسان جنسياً واجتماعياً، جنسياً قوله تعالى: (لفروجهم حافظون)، واجتماعياً: (على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم)، وهذا هو المعجز في القرآن الكريم حقاً، المواكب لكل الأزمان والأمكنة والناس.

٤- ويتطلب التوازن بين زينة الحياة الدنيا الذي ورد في الآية الكريمة: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً) (الكهف/ ٤٦)، ولذا يحذر الخالق عز وجل الركون إلى جمع الأموال والسير الأعمى في استثمارها من غير هدى ومن غير ذكر الله، بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (سورة المنافقون/ ٩)، لأن الإنسان إن لم يذكر الله في شرائعه، سيتخبط بإرادته أو بغير إرادته بالحرام واغتصاب حقوق الآخرين، والإسهام في خلق الفوضى في المسيرة الاقتصادية، وتدمير المجتمع بما فيه الأسرة، وهو جانب من ذكر الله المتمثل بأصول الدين وفروعه، وهنا لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام قولٌ بالغ الغاية، حيث يقول: (من اتجر بغير فقه فقد ارتطم في الربا)[١٤]، وهنا يبرز عامل التوازن من خلال التفقه في التعاليم الإسلامية المتمثلة بالفقه الاقتصادي، للاسترشاد بأقوم السبل لوضع الحقوق والواجبات في مواضعها، وآثار ذلك على استقرار الأسرة أولاً وأخيراً، ويمكن لهذا الموضوع أن تكون دراسة خاصة.

٥- وتفحص قوله صلى الله عليه وآله: (عليكم بالولود الودود)[١٥]، عامل تقويمي لعمودي بناء الأسرة المتمثل بالأب والأم، لذا من خلاله يكون استقرار الدواخل الأسرية وبناؤها بأفضل السبل، وبالذات هذا القول الشامل، للقضية البيولوجية المتمثلة بالجنس والجنين والتربية الصالحة، المعبر عنها (بالولود)، (والودود) بناء الأسرة نفسياً واجتماعياً وأخلاقياً، وبناء الألفة المتناغمة القريبة من الخالق عز وجل، ومن ثم التواصل المستقر للأسرة وتقدمها في منافذ أنشطتها الاجتماعية والاقتصادية، وبهذا يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: (أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله)[١٦]، وتفحّص (ألطفهم بأهله) وما تحمله من دقة استقرار الأسرة، في آلياته ونتائج اللطف، وأبسط تنفيذ ذلك مجازاً، من خلال الكلمة، التي هي بمثابة أواصر الرحمة الإنسانية، المتبادلة العطاء بين الزوج وزوجته وأطفالهما، وهنا جواب كيفية بناء الأسرة روحياً ونفسياً وجسدياً، بنتائج التماسك والسرور، أما إذا كان خلاف ذلك، فيكون في قوله صلى الله عليه وآله: و(من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه، ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون)[١٧]، وما أعظمه حينما يكون عامل أساسي في الحفاظ على الأسرة وبنائها لئلا تُهدم دواخل أفراد الأسرة الواحدة، وبه حماية الأسرة من التفكك والصراع المؤلم، وفيه أيضاً جانب إصلاحي لذات البين، وقد يكون جانب إصلاحي لتقويم سلوكيات الزوج أو الزوجة، بالانتباه إلى ما فعله ويفعله وخطأ ذلك، وإعادة النظر في تلك السلوكيات السلبية لتقويمها.

٦- ومنهاج آخر يرشدنا إليه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، لنفع الذات البشرية، وحافز لصلاح الزوجة، دنيوياً وأخروياً، يتجسد في قوله الشريف: (إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت جنة ربها)[١٨]، فالنفع هنا سبيله بسيط ونتائجه عظيمة على المرأة الصالحة، وعلى من يحيط بها، وتقوية أواصر الأسرة، وكم من امرأة سلكت أساليبها الرائعة، حتى غيّرت انحراف الزوج إلى قويم الرشاد، وهذا جانب رائع في طاعة الزوج، وليس الطاعة فقط على تنفيذ طلباته أو حتى أوامره، بل يتعداه إلى الإصلاح من خلال قوة الوعي والإصرار على ذلك بشتى سبل الود واللطف وما يناسب من أساليب إنسانية، وهذه تُظهر مدى قوة شخصية المرأة (الزوجة)، فكم من مقامر خمّار منحرف، أصبح من الأتقياء الصالحين بفضل الله والزوجة الصادقة مع ربها ومع ذاتها وأسرتها، وحماية البناء الأسري من الانهيار، بأسلم ما يمكن من الوصول إلى الاستقرار والتماسك بين أفراد الأسرة أو العائلة، وبهذا يقول الإمام علي عليه السلام: (أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله، ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدّكما صلى الله عليه وآله يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة

والصيام...)[19]، وقد تقدّم ذكر هذا القول المبارك.

٧- ولدخول السرور في قلوب الأبناء أو الأسرة أمر ضروري، ويوضح ذلك رسولنا الكريم ﷺ بقوله: (من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة حتى يضعها فيهم، وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإنه من فرّح أنثى فكأنما بكى من خشية الله ومن بكى من خشيته حرم الله بدنه على النار)[20]، ولذا أبعاده الإنسانية المرهفة الإحساس، وماوضع الإسلام العظيم المكانة الجليلة للمرأة منذ نعومة أظفارها، وما يُليق به، لتسترد عافيتها نفسياً واجتماعياً، وشعورها بالاعتزاز والثقة بالنفس، وبناء الشخصية القوية، لمستقبل الأسرة التي تكون على رأسها مستقبلاً، ولا يخفى النبي ﷺ ما أجر الاهتمام بالبنات في الإنفاق والتربية الصالحة بقوله: (من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه، أوجب الله له الجنة البتة إلا أن يعمل عملاً لا يغفر له)[21]، ومن كفارة الذنوب ما يذكره ﷺ: (إذا كثرت ذنوب العبد، ابتلاه الله بهمّ العيال ليُكفّرها عنه)[22]، وكل ذلك يولد الشخصية للأب، والتماسك الأسري، وما ينعكس على التماسك الاجتماعي إيجاباً.

٨- والتفحص في دقة الإسلام من خلال قول النبي ﷺ: (إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم)[23].

لنرى ما هدف الإسلام من بناء الشخصية المسلمة ومكانتها حتى في أدق الأمور، هي تسمية المسلم بالأسماء الحسنة الجميلة، والحيلولة دون انكسار الشخص باسم يعيبه، ويُضعف قوة شخصيته، بهزوة الآخرين به من خلال اسمه، واستصغاره.

٩- وللحقوق والواجبات فعلهما في تكوين الأسرة، وتبادل الحقوق والواجبات بين الآباء والأبناء، وفي كل الاتجاهات وفي مختلف الأعمار، ومن ذلك برّ الوالدين، ويظهره قوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) (سورة الإسراء/ ٢٣-٢٤).

وتزخر الآيتين الكريمتين بفيض من نظام التنظيم الأسري وبالوجوب، ومن بين ما يتبين الأمور التالية:

أ - قَرَن الخالق عز وجل ذكر جلالته وجعل بر الوالدين والإحسان إليهما يعقب مباشرة عبادته وطاعته، بل هو جزء من عباداته وطاعاته، لما للبر من وحدة الروح الأسرية والاجتماعية وعمق الإنسانية فيها، وَرَدّ الجميل إلى من أعطى بلا حدود لأبنائه.

ب - يتوجب الرعاية الكاملة الصادقة لله دون التذمر، ودون السلوك حتى (بالأف) الزفير المعبر عن ما يتحمل من ثقل، ويبدّله بالود والطيب والاحترام والدفء الأسري، لأن الآباء الصالحين منهم بالخصوص، هم بركة العائلة أو الأسرة، وقد يكونون بركة وأوتاد الأرض والمجتمع.

ج - والألفة لها الوقع الحيوي من خلال الدعاء، دعاء الأبناء للآباء وطلب من الخالق عز وجل الرحمة لهما، وهذا بذاته يولّد الرقة واللطف من كلا الطرفين، الوالدين والأبناء، وتبادل الشروع الإنساني والألفة، والاندفاع نحو الخير والإنسانية للأسرة والمجتمع والدولة ■

القرآن الكريم.

(١) راجع على سبيل المثال: ويل ديورانت/ قصة الحضارة/ المجلد الأول/ ج٢/ ترجمة زكي نجيب محمود/ مطبعة لجنة التأليف/ القاهرة/ ط٣/ ١٩٦٥م. نخبة من أساتذة التاريخ/ العراق في موكب الحضارة/ ج١/ دار الحرية للطباعة/ بغداد/ ١٩٨٨م/ ص٢٠٥-٢٦٩. نخبة من الباحثين العراقيين/ حضارة العراق/ ج٢/ دار الحرية للطباعة/ بغداد/ ١٩٨٥م/ ص٦٣-١٠٧.

(٢) ورد هذا المفهوم في ضوء المفهوم الوارد في قاموس علم الاجتماع، وبصورة أدق، والمرجع: د. محمد عاطف غيث/ قاموس علم الإجتماع/ مطبعة الانتصار/ الإسكندرية/ ١٩٨٩م/ص١٨٠.

(٣) راجع: نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين/ معجم العلوم الاجتماعية/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ١٩٧٥م/ ص١٨٦-١٨٧. عماد الدين عيد/ الصحة العامة وبرامجها/ المطبعة العصرية/ الإسكندرية/ ١٩٨٣م/ص١٧٣.

(٤) ابن خلدون/ مقدمة ابن خلدون/ دار العودة/ بيروت/ ١٩٨١م/ وبالتحديد ص١٣٤-١٣٥. وراجع أيضاً: د. عبد الهادي الجوهري/ أصول علم الاجتماع/ المطبعة التجارية الحديثة/ ١٩٨٦م/ ص١٦٠. د. محمد سعيد فرج/ ما.. علم الاجتماع/ رمضان وأولاده للطباعة والنشر/ ١٩٨٧م/ ص١٧٢-١٧٦. د. أحمد كمال أحمد/ قراءات في علم الاجتماع/ مطابع الدجوي/ القاهرة/ ١٩٧٧م/ ص٥-٦. هاشم حسين ناصر المحنك/ النظام الأسري بين التراث والمعاصرة (مع دراسة ميدانية لمحافظة النجف الأشرف/ بحث اشترك في مؤتمر الأمومة المأمونة/ أقامته جمعية تنظيم الأسرة العراقية بالتعاون مع الاتحاد الدولي لتنظيم الأسرة وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومنظمة الصحة العالمية ومنظمة اليونسيف والمكتب الإقليمي لتنظيم الأسرة للوطن العربي... وجهات أخر/ بغداد/ ٦-٨/ كانون الأول/ ١٩٩٤م.

(٥) الغزالي/ إحياء علوم الدين/ ج٤/ دار الشعب/ القاهرة/ ص٦٨٣.

(٦) المصدر السابق/ص٦٨٤.

(٧) المصدر السابق/ص٦٨٤.

(٨) المصدر السابق/ص٦٨٤.

(٩) المصدر السابق/ص٧١٧.

(١٠) المصدر السابق/ص٧١٢.

(١١) المصدر السابق/ص٧١٨.

(١٢) المصدر السابق/ص٧١٨.

(١٣) المصدر السابق/ص٧١٩.

(١٤) المصدر السابق/ص٧١٩.

(١٤) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام/ نهج البلاغة/ ضبط النص والفهارس/ د. صبحي الصالح/ دار الكتاب اللبناني/ بيروت/ ط١/ ١٩٦٧م/ ص٥٥٥.

(١٥) الغزالي/ المصدر السابق/ ص٧١٧.

(١٦) المصدر السابق/ص٧٢٣.

(١٧) المصدر السابق/ص٧٢١.

(١٨) المصدر السابق/ص٧٤٦.

(١٩) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام/ المصدر السابق/ ص٤٢١.

(٢٠) الغزالي/ المصدر السابق/ ص٧٤٠.

(٢١) المصدر السابق/ص٧٠٢.

(٢٢) المصدر السابق/ص٧٠١-٧٠٢.

(٢٣) المصدر السابق/ص٧٤١.

التتمة في العدد القادم

Yanabee'a

ينابيع

مؤسسة الحكمة الثقافة الإسلامية

٨

مَجلّةٌ ثقافيّةٌ تُعنى بِنَشرِ فِكرِ أَهْلِ البَيْتِ عليهم السلام / السَّنة الثانيَة / العَدَد الثامِن شهر رمضان ـ شَوّال ١٤٢٦هـ / تشرين١ ـ تشرين٢ ٢٠٠٥م

- مرقد الشهيد رُشيد الهجري
- عينية ابن أبي الحديد المعتزلي
- مرقد علي بن أبي طالب في أفغانستان

الحلقة الثانية:

الدين.. وتنظيم الحياة الأسرية

• هاشم حسين ناصر المحنك
رئيس تحرير مجلة النجف

ينابيع

د - عمق التواد والتواضع، والوصول إلى أفضل السبل الإنسانية، لتداخل الأرواح، والتحسس النفسي الواحد، والمصير الواحد، وهذا يبني التواصل الأسري عبر الحياة والأزمان، يجمعهم الحب في الله، لا من أجل الطمع والجشع والمصلحة المؤلمة والماديات الوخيمة.

والإمام علي عليه السلام يقول: (لو علم الله شيئاً في العقوق أدنى من أف لحرمه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار)[1]، والقصد من قوله عليه السلام ذلك، ليبين ما شدة العقوق (عقوق الوالدين) التي تُمحق كل الأعمال الخيرة، وبه يريد أن يعلمنا الخالق عز وجل وأولياءه الصالحين، مدى خطورة ذلك على الذات والمجتمع بما فيه الأسرة، ويعرف الخالق عز وجل ومن سار في ركب الأخيار، أن من يبدأ ويتعلم بر الوالدين والرفق بهما، لابد أن لا يخطو إلا في قويم السبل، بل حتى لا يفكر إلا في الخير، والصدق في ذلك، وما أروع وأعظم المجتمع الذي يكون أفراده وأسره بهذا الشكل، فلا جريمة ولا بغضاء ولا ضغينة، بل وحدة القلب واللسان واليد.

وتطالعنا كتب التراث على روائع السلوك الإنساني بهذا الخصوص، حيث قيل: (...لعلي بن الحسين (رضي الله عنه) أنك من أبر الناس ولا تأكل مع أمك في صفحة فقال: أخاف أن تسبق يدي يدها إلى ما تسبق عينها إليه فأكون قد عققتها)[2].

وفي رسالة الحقوق للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يقول بخصوص حق الأم: (وأما حق الرحم فحق أمك أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحمل أحد أحداً، وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يطعم أحدٌ أحداً، وأنها وقتك بسمعها وبصرها ويدها ورجلها وشعرها وبشرها وجميع جوارحها، مستبشرةً فرحةً محتملةً لما فيه مكروهها وألمها وثقلها وغمها، حتى دفعتها عنك يد القدرة وأخرجتك إلى الأرض فرضيت أن تشبع وتجوع هي، وتكسوك وتعري وترويك وتظمى، وتظلك وتضحى، وتنعمك ببؤسها وتلذذك بالنوم بأرقها، وكان بطنها لك وعاءً، وحجرها لك حواءً، وثديها لك سقاءً، ونفسها لك وقاءً، تباشر حر الدنيا وبردها لك ودونك فتشكرها على قدر ذلك، ولا تقدر عليه إلا بعون الله وتوفيقه.

وحق الأب، وأما حق أبيك: فإن تعلم أنه أصلك، وأنك فرعه وأنك لولاه لم تكن. فمهما رأيت في نفسك مما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه، واحمد الله واشكره على قدر ذلك. ولا قوة إلا بالله.

وحق الولد، وأما حق ولدك: فإن تعلم أنه منك، ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره. وأنك مسؤول عما وليته من حسن الأدب، والدلالة على ربه والمعونة له على طاعة فيك وفي نفسه، فمثابٌ على ذلك ومعاقب. فاعمل في أمره عمل المتزيِّن بحسن أثره عليه في عاجل الدنيا، المعذِّر إلى ربه فيما بينك وبينه بحسن القيام عليه، والأخذ له منه.

حق الأخ، وأما حق أخيك: فإن تعلم أنه يدك التي تبسطها، وظهرك الذي تلتجئ إليه، وعزك الذي تعتمد عليه، وقوتك التي تصول بها، فلا تتخذه سلاحاً على معصية الله، ولا عدة للظلم لخلق، ولا تدع نصرته على نفسه، ومعونته على عدوه والحؤول بينه وبين شياطينه، وتأدية النصيحة إليه، والإقبال عليه في الله، فإن انقاد لربه وأحسن الإجابة له، وإلا فليكن الله آثر عندك وأكرم عليك منه)[3].

وما أرفع للأسرة والمجتمع لو تفحَّص كل منهم هذا المنهج الإسلامي للأسرة ولأفرادها، فلا يتعدى بعضهم على حق البعض، إن كانوا لهم الألباب، لأن الهدف أولاً وأخيراً هو تنقية أجواء الأسرة، وجعل العلاقات الاجتماعية الإنسانية، آلية محبة لتماسك الأسرة بأعمق صورها الإنسانية، من أجل مستقبل كل فرد فيهم، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: (فما طاب سقيُهُ، طاب غرسُهُ وحلَّت ثمرتُه، وما خبث سقيُه، خبث غرسُهُ وأمرت ثمرتُهُ)[4].

١٠- أساليب تربية الأسرة لأبنائها، ومدى النجاح في ذلك، لأن خطورة بناء شخصية الأبناء، تكمن في قوة فاعلية وآلية أساليب التربية، فبلا أدنى شك عندما يصبح الخلل في التربية سيلحق بالأسرة التفكك والانحرافات وارتكاب الجرائم، وقد أشار الذكر الحكيم للجرم والمجرمين على أوجه مختلفة، وجاء منه ببينه الخالق عز وجل بقوله: (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) (يونس/ ١٣)، والإشارة التربوية واضحة في قوله تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ) (الجاثية/ ٣١)، فجزاء الانحراف التربوي قوله جل وعلا: (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا) (طه/ ٧٤).

وللتاريخ والآثار حضوره في مجال الأساليب التربوية، على أساس الاتعاظ والعبرة، وبمنظور التفكّر لما جرى على من هو منحرف، كقوله تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) (النمل/ ٦٩) وأخطر ما يواجه الفكر انحراف ذات الفكر ومن يحمله إما مخطط لها أو عقوبة اكتساب الفكر المنحرف، وهو ما تكشفه الآية الكريمة: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَ يَشْعُرُونَ) (سورة البقرة/ ١٠-١٢)، وبطبيعة الحال لا يسلك السلوك المنحرف إلا من كان أساساً هو منحرف، ويقترن المنحرف بالمنحرف الآخر، وهو ما يتجلى واضحاً في السلوك الجنسي، لذا (الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (سورة النور/٣) ويقول بهذا الخصوص، الرسول الكريم ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)[٥]، لأن المُسَيِّر الأساسي للمؤمن هو قويم الفكر والوعي الكامل له، ويضع الإمام علي عليه السلام فكر فلسفي وطروحات معلّلة لأسباب قائمة من خلال قوله:

(فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر، والزكاة تسبيباً للرزق، والصيام ابتلاءً لإخلاص الخلق، والحج تقربةً للدين، والجهاد عزاً للإسلام، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام، والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاء، وصلة الرحم منماةً للعدد، والقصاص حقناً للدماء، وإقامة الحدود إعظاماً للمحارم، وترك شرب الخمر تحصيناً للعقل، ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة، وترك الزنا تحصيناً للنسب، وترك اللواط تكثيراً للنسل، والشهادات استظهاراً على المجاحدات، وترك الكذب تشريفاً للصدق، والسلام أماناً من المخاوف، والأمانة نظاماً للأمة، والطاعة تعظيماً للإمامة)[٦].

وهذا المنهج التربوي يضع المجس على النبض، وفقاً للمدرسة القرآنية والنبوية، ويوضح عليه السلام من خلال النص المتقدم العمق الفلسفي الدقيق وبالتحليل والتعليل المقتضب، الشافي الوافي، لانتهاج السلوك الواعي، وفق أرقى الأبعاد الإنسانية والأخلاقية والتربوية، وعمق الكلمة لبناء الشخصية الواعدة التي تحظى بدنياها وآخرتها.

١١- إصلاح أفراد الأسرة والمجتمع، وفقاً لنظام وتنظيم إنساني أخلاقي عظيم مستمد عظمته من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأقوال الأئمة الأبرار عليهم السلام، ومن استمد كلمته منهم، ويبدأ بالنهي عن كل ما هو منحرف ومنكر، وخير مستمد لها لهذا الجانب لحماية الأسرة والحياة الأسرية وتنظيمها، قوله تعالى:

(وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤولاً وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) (الإسراء/ ٣١-٣٥)، وهذا المنهج التربوي الناطق بحيوية الدين وحلوله الرائعة والإنسانية للحياة الأسرية وتنظيمها، من حماية أرواح البشر داخل الأسرة والمجتمع، والسلوكيات القويمة، الاجتماعية والاقتصادية، وما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات.

١٢- والإسلام وضع أساليب وقائية وعلاجية لمسيرة حياة الأسرة، ولكي لا تتفاقم الأمور بين الزوج والزوجة، في حالة عدم وجود التوافق وكل أوجه المواءمة بين الزوجين، ولا يتعدى ذلك إلى ظلم أحدهما الآخر، وقد يتعداه إلى ارتكاب الجرائم والمحرمات، وضع الدين الإسلامي في فقهه الاجتماعي، آخر الدواء الكي، والمتمثل بالانفصال عن طريق الطلاق وهو أبغض الحلال عند الله، إلا أنه لا مناص منه إذا عجز الإنسان من علاج المشاكل الزوجية، فهو حلال عند الله لكنه (أبغض) الحلال، وبهذا الخصوص وضع الإسلام لك معضلة حكمه فيها لتنظيم الأسرة والحياة العامة داخل المجتمع لاستقراره، حيث جاء في الذكر الحكيم: (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) (سورة البقرة/ ٢٣٧)، ويرد في آية أخرى: (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) (سورة البقرة/ ٢٣١).

وللطلاق في الشريعة الإسلامية أصولها ونظامها وتنظيمها بالإضافة إلى ما تقدم، وفقاً لقوله سبحانه وتعالى: (الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (سورة البقرة/ ٢٢٩-٢٣٠).

وكل ما تقدم يمثل أبعاد مختصرة، وبما يسع دراستنا، للدين الإسلامي والحياة الأسرية وتنظيمها، وفق أفضل السبل الإنسانية المحمودة والمناسبة والحضارية ■

---

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الابشيهي المحلي/ المستطرف في كل فن مستظرف/ ج٢/ مطبعة المشهد الحسنين/ مصر/ ١٣٦٨هـ/ ص٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الإمام علي بن الحسين زين العابدين/ رسالة الحقوق/ مؤسسة الأعلمي/ ص٢٨-٣١.

(٤) الإمام علي بين أبي طالب/ المصدر السابق/ ص٢١٦.

(٥) ابن خلدون/ تاريخ ابن خلدون/ مج٢/ دار الكتاب اللبناني/ بيروت/ ١٩٦٠م/ ص٨٢٨.

(٦) الإمام علي بن أبي طالب/ المصدر السابق/ ٥١٢.